بنت زكريا

بقلم الاستاذ احمد صفروه

غادة هيفاء ميساء ، لمياء لعساء ، قد ملكت الغاية القصوى من المواهب الخلابة ، فاصبحت ضالة كل ناشد ، وأمنية كل متمن :

من الخفرات البيض ود جليسها اذا ما انقضت أحدوثة لو تعيدها

وكيف لا تجتمع لها هذه الصفات فتملك بها القلوب والمشاعر ، وقد نشأت في بيت عريق في المجد والسؤدد ، وانحدرت من ارومة مدّ عليها العز رواقه فتفيأت ظلاله ، وغذاها النعيم بثرى ميث بمسك وزعفران ، ونسيم عطر بورد وريحان ، وزلال شيب بأري الجنى ، أو ما عتقت بابل من الصهباء كانت تاجا للشمس والقمر ، ودرجت في حجر طاول الثريا ، وترعرعت في مغنى محدراته كواكب زهر ، وعذاراه دمى العاج ، وحواضنه لآلئ ويواقيت ، فاذا أسعدك أو أتعسك الجد باجتياز مرتبع او مصطاف لهؤلاء ، وقد ضربت قبابه ، وبدت شموسه ، وسنحت جآذره وظباؤه ، فسوف لا تتمالك من ترديد قول مهيار :

يا من رأى بحاجر مجالياً من حيث ما استقبلها فهي قبل
اذا مررت بالقباب من قبا مرفوعة وقد هوت شمس الاصل
فقل لأقمار السماء اختمري لخابة الحسن لأقمار الكلل

أما رجاله فليوث المعامع ، وخطباء المحافل ، وأعلام القضاء ، بين جدخطير ، وأب وزير ، وعم قاض ، واخ وامير . أتيح لها من عيشها ظل وارف وريان ملتف الحدائق أخضر
ووال كفاها كل امر يهمها فليست لشيء آخر الليل تسهر

اختلف على هذه الغادة كبار المؤدبين من اساطين العلوم والفنون فثقفت وضربت من كل فن بسهم واضافت الى الانفراد بالجمال الساحر مزايا رائعة فتانة ، من علم وخلق وفضل ؛ فان تحبى العذراء بجمالها فتنة واحدة فبنت زكريا حبيت فتنتين واصبحت في غدوها ورواحها ثالثة الكعبتين .

وقضت الغادة امسية حلوة في بعض منتزهاتها برصافة قرطبة بين ولائد يكتنفها ، تبذهن طولا ولين اعطاف ؛ وقد اشرقت لهن وجوه زهاها الحسن ان تتقنع ، فشقت انوارها ظلمة الليل الحالكة .. وفجأة في بعض المنعطفات تراءت لها أشباح ما لبثت ان تبينتها فارتاعت واسرعت بمعصميها تستر ذلك النور الوهاج فكان نور على نور . .

بهت الشاب لما رأى وجمد في مكانه ؛ واحس بسهم مقلتيها يخترق شغاف قلبه ؛ فيتطاير الدم ليصبغ وجنتيها برشاشه فوضع يده على فؤاده ريثما يستعيد ما شرد من ذاكرته ، ثم تبادلا نظرات عميقة وأشار اليها قائلا : لله در علي بن الجهم [١] فما كان باسرع من ان اجابته : لله در ابي العلاء [٢] ثم تابع كل منهما سيره دون ان يفهم رفاقها مغزى هذا الحوار الناعم ... كان هذا الشاب « يحيى بن محمد » ابن احد وزراء الدولة يتجول في جمهرة من خوله بين حدائق الرصافة الغناء ؛ فعاد الى بيته وهو يقول :

الحين ساق الى الرصافة لم يكن قصد الرصافة مطلبي ومرادي

برح الوجد بالفتى فالزم الفراش كاتما امره ، وجن جنون الام لما اخفقت وسائل الطب ، ورأت هذه الزهرة العطرة التي تستنشق من شذاها نعيم الحياة ، رأتها تذب فيها

ان من سبر سيرة الابطال المغامرين من العرب تجلى له بوضوح ان الملك حسين فى طليعة اولئك الاشاوس الذين غامروا في صالح العرب واحيائهم واليوم والعرب كافة تطمح الى حفيده سيد البلاد الوصي المعظم وترى فيه منقذها الاكبر ، في محنتها الحاضرة .

لقد قرأنا الكثير من انباء الجهود التي قام بها في رحلته المباركة من اجل العرب عامة وفلسطين خاصة ولا شك انها ستثمر النتيجة الحاسمة فيتحقق بذلك امل العرب ويظفروا بامانيهم النبيلة . .

علي الخاقاني

---

[١] اشارة الى قوله :

عيون المها بين الرصافة والجسر جلبن الهوى من حيث ندري ولا ندري

[٢] اشارة الى قوله :

ايا دارها بالخيف ان دارها قريب ولكن دون ذلك أهوال

صفرة الذبول والفناء ، فجلست بجانب سريره ، واذا به يهذي فاستمعت الى هذيانه ، واذا بها تطلع على مكنون سره ... صحا الشاب بعد فترة فتلطفت الام بمفاتحته ثم عرضت عليه من بنات أعمامه وأخواله : كل غيداء كشبوب القبس لكنه امتنع عليها معتذراً بقوله :

أتاني هواها قبل ان اعرف الهوى فصادف قلباً خالياً فتمكنا

فلم تزل تعرض عليه السرب تلو السرب والمهاة اثر المهاة وهو لا يزداد إلا تمنعاً ولا يلوي على واحدة ثم قال لها : كفي يا اماه أو اعيني فتاك على بلوغ مناه :

انا والله هالك آيس من سلامتي
أوأرى القامة التي قد أقامت قيامتي

واخيراً سعت لتحقيق أمنيته في مهرجان اهتزت له اركان قرطبة فاشرقت ساحاتها، وازدانت قصورها، وتبرجت حورها، فاعجب لها ليلة تقابل فيها النيران « يحيى وربى » فبث كل منها ما عنده لصاحبه منذ تبادلا تلك النظرة في الرصافة ثم اهوى يحيى على النحر يشمه ويقول :

وتزيدين طيب الطيب طيباً ان تمسيه اين مثلك اينما
واذا الدر زان حسن وجوه كان للدر حسن وجهك زينا

وقضى العروسان اعواما ثلاثة كأن الدهر اطبق عليهما جفنيه فنام واصبحا بمأمن من غوائله فتعاطيا كؤوس الحب مترعة ونهلا من كوثر السعادة والهناءة راحا صافية لذة ، وكانا . خير مثال للزوجية الصالحة بما فيها من حب ووفاء وإخلاص فيحيى يترنم بين يديها كل ليلة باغنيته :

واستلذ غرامي فيك يا املي ولست عنك مدى الايام انصرف
ان قيل لي تسلى عن مودتها فما جوابي إلا اللام والألف

وربى تحدوه بترنيمتها المسائية .

فصبارك مني النصح مادمت حية وود كماء المزن غير مشوب
وآخر شيء انت لي عند مرقدي واول شيء انت عند هبوبي

وكأن ما اصاب هذين الوامقين من غبطة وسرور آلم قلب الدهر الحسود ففتح عينيه يحدق بهما مكشراً عن انيابه واخذ يسدد اليهما سهام مصائبه وهما يتلقيانها بنفس وادعة وقلب ثابت حتى اذا أعجزه صبرهما رماها بالفاقرة فالقى يحيى على السرير تصهر جسمه نيران الاسقام وجلست المسكينة بجانبه تسكب دموع الاشفاق وتمزق احشاءها خوف الفراق وتفادى به الداء حتى اورده الردى فالتفت الى حبيبته وهو يصعد الروح قائلا : ربى ربى ماذا لي عندك اذا حم القضاء لم أرو بعد غليلي منك فآه آه . ربى ربى :

وددت بان القلب شق بمدية وأدخلت فيه ثم اطبق في صدري
فاصبحت فيه لا تحاذين غيره الى منقضى يوم القيامة والحشر
نعيشين فيه ما حييت فان امت سكنت شغاف القلب في ظلم القبر

فلم تجبه المسكينة إلا بالزفرات تتبعها العبرات ... فاعاد عليها الكلام ربى ربى افصحي عن رأيك فحينئذ ركعت أمامه وانشدت :

وددت بان ظهر الارض بطن وان البطن منها صار ظهرا
واني مت قبل ورود خطب اتى فثار في الاكباد جمرا
وان دمي لمن اهواه غسل وان ضلوعي صدري كن قبرا

أعاهد الله ان الرجال علي حرام بعدك وسوف لا يلذ لي طعام ولا يهنأ لي شراب أو ارد موردك ثم كان بعد العهد عناق الوداع حيث اسلم الحبيب روحه بين سحر الحبيبة ونحرها .

وانه لمن المناظر المؤلمة التي تتفطر لها القلوب القاسية وتفتضح فيها عزيمة كل جلد وتسكب كل عين جمود . فما ظنك بربى وقلبها وعزيمتها وعينيها ؟ لقد ظلت معانقة له بعد موته وباتت معه في دثار واحد طول ليلتها وجعلتها آخر العهد به وبوصله . ثم وفت بعهدها ولازمت الاسف والحزن بعده الى حين موتها ...

لك الله ياربى ولله قلبك الطافح بالحب والوفاء والاخلاص وكأني بيحيى المشغوف بمزاياك العالية يطل عليك من شفير حفرته أو افق الرحمة وهو يقول : طاب الموت طاب الموت عاش الوفاء الزوجي الخالص ازفت الساعة آن المتلقى يا ربى الي الي فانا بانتظارك تحت سدرة المنتهى عندها جنة المأوى .

***

يا لآلئ القرن العشرين الا فليكن لكن بربى اسوة حسنة في الوفاء الزوجي الخالص .

دمشق : احمد صندوق